

نظرة المصادر الغربية لإلحاق الجزائر بالدولة العثمانية "المؤرخ الفرنسي دي غرمون أنموذجا" Western sources' perception of Algeria's annexation to the Ottoman Empire: 'The French historian de Grammont as an example'

خالد كريبي (*)

المركز الجامعي بريك، (الجزائر)،

khaled.kribi@cu-barika.dz

تاريخ الاستلام: 2024/11/ 07 تاريخ القبول: 2025/04/ 11 تاريخ النشر: 2025/06/ 03

يدور موضوع هذه المداخلة حول اهتمام بعض المصادر الغربية بالجزائر، حيث كتبت عنها في الغالب بأسلوب منحاز وغير موضوعي. واعتبرت هذه الكتابات تحالف الجزائر مع الدولة العثمانية تهديدا للامتيازات الأوروبية وخطرا على مصالح دولها في هذه المنطقة. وتشير هذه المصادر إلى فشل العلاقات الجزائرية العثمانية في تحقيق الاستقرار في الجزائر والمنطقة ككل. كما اعتبرت هذه المصادر وخاصة الفرنسية منها أن انضمام الجزائر للدولة العثمانية ساهم في تعزيز القوة البحرية العثمانية مما أدى إلى زيادة الهجمات البحرية على السواحل الجزائرية. وسنقف من خلال هذه المصادر على إشكالية الوجود العثماني في الجزائر، ومدى تحمل الكتابات التاريخية الغربية على هذه الفترة من تاريخ الجزائر إلى درجة تشويه وتغييب الحقائق.

الملخص

الكلمات الدالة الوجود العثماني؛ الكتاب الأجانب؛ دي غرمون؛ إيالة.

Abstract:

The topic of this intervention revolves around the interest of some Western sources in Algeria, as it was mostly written about them in a biased and subjective manner. These writings considered the Algerian alliance with the Ottoman Empire a threat to European privileges and a threat to the interests of its countries in this region.

These sources indicate the failure of the Algerian Ottoman relations to achieve stability in Algeria and the region as a whole. These sources, especially the French, were also considered that Algeria's joining the Ottoman Empire contributed to strengthening the Ottoman naval force, which led to an increase in maritime attacks on the Algerian coast.

Keywords: Ottoman presence; foreign writers; Algeria; De Grammont;

* المؤلف المرسل.

province.

1. مقدمة:

حظي الوجود العثماني في الجزائر باهتمام كبير من قبل المؤرخين والكتاب الأجانب، الذين وثقوا مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية خلال هذه الفترة. بدءًا من انضمام الجزائر للدولة العثمانية عام 1518م على يد خير الدين بربروس، ثم تصوير الحالة في البلاد بشكل متنوع وفقًا لرؤية الكتاب الغربيين.

وتسجل الكتابات الأوروبية، خصوصًا من القناصل الأوروبيين والتجار الذين زاروا الجزائر، تفاصيل عن الحياة اليومية، وكيفية إدارة الدولة، والقوة العسكرية التي امتلكتها الجزائر، وكيف تمكنت من الحفاظ على سيطرتها على المنطقة وسط الضغوط الأوروبية المتزايدة؟، وكذلك تأثير النشاط البحري الجزائري - العثماني على التجارة البحرية الأوروبية.

على الرغم من أن بعض الكتابات كانت تحمل ميولات استعمارية وعدائية، إلا أنها قدمت رؤى غنية حول تأثير العثمانيين في تشكيل الدولة الجزائرية، وتفاعلاتها مع القوى الأوروبية في زمن كانت فيه الجزائر تمثل نقطة إستراتيجية في البحر المتوسط.

2. ظروف الالتحاق الجزائر بالدولة العثمانية

كان لتغيّر موازين القوى في البحر المتوسط واشتداد التنافس الإسباني-العثماني في الحوض الغربي للمتوسط أن عانت الجزائر من تفاقم الخطر الأوروبي وحملاته الصليبية المتزايدة خاصة من قبل إسبانيا على السواحل الجزائرية. ولما عجزت مدينة الجزائر عن مواجهة التهديد الإسباني، سارع سكانها إلى الاستنجاد بالأخوين عروج وشقيقه خير الدين، اللذان شكلا قوة مضادة للقرصنة الأوروبية لدفع الخطر المحدق بمدينتهم ولذلك بدلاً من التجوال في سواحل أوروبا الجنوبية، اقتصر القطع البحرية على الدفاع عن ساحل الجزائر والتصدي للعدوان، وعقب ذلك انضمت الجزائر إلى السلطة العثمانية عام 1518م¹.

بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، عين السلطان سليم الأول الأمير خير الدين بربروس حاكماً عليها عام 1519م، ولقد كانت الرسالة التي واجهها أعيان مدينة الجزائر إلى السلطان

العثماني يدعونه فيها إلى حمايتهم بمنزلة وسيلة النجاة لخير الدين بربروس بعدما أحس بضعف مركزه السياسي. فلجأ إلى كسب ود سكان المدينة محاولاً إقناعهم بضرورة مساعدة الدولة العثمانية لهم، فهي الوحيدة التي كان بمقدورها تزويدهم بالأموال والعتاد الحربي من أجل مواجهة وصد الخطر الإسباني. وبعد أن أصبحت الجزائر إيالة عثمانية، أرسل السلطان سليم الأول قوة عسكرية أصبحت نواة الجيش الجزائري، وتكونت من قوة بحرية محملة بأربعة آلاف مقاتل، ثم بدأت القوات الجزائرية تجهز نفسها لمجابهة الحملات العدوانية المتوقعة². تمكن العثمانيون من القضاء على بعض الكيانات المحلية، مثل إمارة جبل كوكو في منطقة القبائل وغيرها، كما أنشئوا مراكز بحرية وطوّروا ميناء مدينة الجزائر وعملوا على تحصينه وتجهيز السفن بالمدافع، واتخذوا المدن الساحلية قواعد لهم كموانئ شرشال وبجاية، التي انطلق منها الأسطول الجزائري ليلعب دوراً كبيراً في حوض البحر المتوسط لـ 300 سنة قادمة. كما انضمت الجهود العثمانية -الجزائرية الحربية على مقاومة وصد هجمات الإسبان في البحر المتوسط وتقديم العون والمساندة إلى المهاجرين من أهل الأندلس³.

3. المصادر الغربية ومناقشة مسألة الالتحاق:

لابدّ من الإشارة في بداية الحديث عن الوجود العثماني بالجزائر (1518م - 1830م) إلى طبيعة الكتابات التاريخية حول هذه الفترة، فقد كانت هناك اتجاهات فكرية وتيارات تاريخية في كتابة التاريخ الجزائري عموماً والتاريخ العثماني في الجزائر خصوصاً، وقد هيمنت المدرسة الاستعمارية وسعت إلى تكريس الرواية الفرنسية عليها، والتي ركّزت على العهد الرّوماني والحكم الفرنسي وتجاهلت - بل وشوّهت - العهد الإسلامي ومنه العهد العثماني، وهو ما أبعدنا عن الحياد والموضوعية، فصبّت في خدمة أهداف السياسة الاستعمارية بذلك التفسير السطحي والتحيّز المفضوح.

ورغم ذلك تعتبر المصادر الغربية، بما في ذلك الوثائق التاريخية، الروايات، والملاحظات الدبلوماسية، والرحلات وحتى المذكرات التي الفت من طرف قناصل أو جواسيس أو رهبان تعرفوا على المنطق حجر الزاوية لفهم كيفية رؤيتهم لالتحاق الجزائر بالدولة العثمانية فعلاً ما

تركز هذه المصادر على جوانب مختلفة، بدءًا من التقييمات السياسية والعسكرية، وصولاً إلى الانطباعات الثقافية والاجتماعية.

1.3. التحليل السياسي والعسكري:

تُظهر العديد من الوثائق الغربية أن الالتحاق بالدولة العثمانية لم يكن مجرد قرار محلي، بل كان وليد عوامل إقليمية ودولية معقدة. إذ رأت القوى الأوروبية، وخاصة إسبانيا، أن الانتشار العثماني في شمال إفريقيا يشكل تهديدًا للأمن الإقليمي، ولذلك كانت مسألة السيطرة على الجزائر خلال القرن 16م تعد أهم الأولويات الإستراتيجية لصراع الإمبراطوريات وخاصة بين العثمانيين والإسبان. لذا رأى العديد من المؤرخين والمحللين الغربيين أن ضم الجزائر إلى الإمبراطورية العثمانية قد أسهم في تقوية النفوذ العثماني في البحر الأبيض المتوسط، مما أثار قلق القوى الاستعمارية، ويقدم هذا التحليل السلطة في الجزائر بأنها سلطة تنظم القرصنة وأن أسطولها البحري وسيلة لتلك القرصنة لا أكثر ولا أقل، وأنه لا يقوى على مواجهة الأساطيل الأوروبية الضخمة والأحسن تجهيزاً منه⁴.

ويصف المؤرخون الأوروبيون عموماً والفرنسيون على وجه الخصوص فترة الوجود العثماني في الجزائر بأنها عهد سيطرة تركية وحكم أجنبي واحتلال خارجي، وأنهم كانوا مصدر غضب من السكان المحليين بسبب احتكار المناصب السياسية والإدارية.

و تتهم هذه المصادر العثمانيين بأنهم أسسوا سلطتهم من خلال التحالفات المحلية والسيطرة العسكرية، ونجحوا في تكوين دولة ذات حدود وعاصمة حصينة وجيوش عديدة وبحرية نشيطة أكسبتها وزناً دولياً مرموقاً وأكثر من ذلك استطاع الحكم الجديد في الجزائر إن يتحدى الدول الأوروبية المسيحية التي اضطرت إلى محاربته. كما تبرز هذه المصادر كيف تمكن العثمانيون من بناء نظام سياسي واقتصادي معقد سمح لهم بالاستمرار في النفوذ لعدة قرون؟.

2.3. البُعد الاجتماعي والثقافي :

على الصعيد الثقافي والاجتماعي، تتناول المصادر الغربية الفترة التي تلت التحاق الجزائر بالدولة العثمانية بتقدير متباين، حيث يُظهر البعض أن الجزائر قد عانت من ضغوط اقتصادية

نتيجة سياسة الجباية والضرائب المتنوعة التي فرضت على الشعب الجزائري مما أدى إلى خلق نفور بين العنصر المحلي والأقلية التركية كانت في النهاية سببا في اندلاع حركات التمرد وثورات ضد السلطة القائمة. وأن الأتراك الحاكمين في الجزائر لم يكونوا مهتمين إلا بإحضرهم، فلم يعيروا للمستقبل أدنى اهتمام، وبذلك اتصفت حكومتهم بالآنية والعمل من أجل فائدتهم الخاصة، وأن الإدارة التركية للجزائر هي التي تسببت في تحطيم البلاد ماليا واقتصاديا⁵.

ويؤكد ذلك شارل أندري جوليان عندما يذكر: "أن سياسة الايالة تخضع إلى اعتبارات اقتصادية، فإذا تضاءلت الغنائم عجزت موارد البلاد عن تموين الخزينة وجدت الاضطرابات ويستتبع إبرام الصلح مع النصارى نقصا في الأرباح...و إذن فان حالة الحرب أفضل بما فيها من أخطار وكذلك من منافع..."⁶.

أما ثقافيا فعادة ما توصم هذه المصادر العهد العثماني الذي يمثل ثلاثة قرون من تاريخ الجزائر، بالفراغ الثقافي والعقم الفكري، وركود الحياة الثقافية وأن ما وجد من مؤلفات في هذا العصر تميز بالضحالة التي لا يعرف أصحابها معنى للدراسة والمنهجية والرصانة⁷.

3.3. النظرة الاستعمارية

من جانب آخر، تعكس بعض المصادر الغربية نظرة استعمارية، حيث يتم تصوير الجزائر بأنها تحت الهيمنة العثمانية، يعبر هذا التوجه عن فكرة تفوق الثقافة الأوروبية، واعتبار الهيمنة العثمانية بمثابة تهديد لتقدم الشعوب، وبذلك تجلت الروايات الغربية في كثير من الأحيان من خلال عدسة القوة والسيطرة، مما أسهم في تشكيل انطباعات سلبية عن التحاق الجزائر بالدولة العثمانية⁸. ويقدم مؤرخو الاستعمار الفرنسي الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الطروحات التي تبرر الاستعمار سلطة الأتراك في الجزائر بوصفها سلطة طاغية استغلالية قاهرة للسكان⁹.

إن أغلب الدراسات التاريخية المتعلقة بالفترة العثمانية، والتي تمت على يد كتاب فرنسيين، تعتبر دراسات مغرضة، فهي تهدف إلى خدمة الاستعمار الفرنسي في مجال التاريخ، بحيث أخضعت منهجية التاريخ ومتطلبات البحث إلى واقع الاحتلال ومرامي السياسة الاستعمارية¹⁰.

تعد فترة التحاق الجزائر بالدولة العثمانية مرحلة بارزة في تاريخ البلاد، بما لها من تأثيرات سياسية وثقافية واجتماعية عميقة. ومن خلال فهم المصادر الغربية، رغم اختلافاتها، يمكننا أن نستخلص صورة متعددة الأبعاد لما حدث.

إن تحليل النظرة الغربية إلى الجزائر أثناء التحاقها بالدولة العثمانية يكشف لنا عن جملة من التحديات والمفاهيم التي لا تزال تؤثر على كتابة التاريخ حتى اليوم. هذا الأمر يدفعنا إلى أهمية دراسة هذا التاريخ من زوايا متعددة، مع الأخذ بعين الاعتبار التداخلات الثقافية والتاريخية التي تشكلت عبر العصور. فالتحاق الجزائر بالدولة العثمانية ليس مجرد حدث تاريخي، بل هو نقطة تحول تعكس التفاعل بين الشعوب والثقافات، وتنعكس كيف يمكن أن تؤثر العوامل السياسية والعسكرية على تشكيل التاريخ المحلي والإقليمي.

4. كتابات المؤرخ الفرنسي دي غرمون أنموذجا حول التحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

من بين المؤرخين الذين تناولوا تاريخ الجزائر في إطارها العثماني، يظهر اسم المؤرخ الفرنسي دي غرمون (De Grammont)، الذي قدم رؤى تحليلية دقيقة حول فترة التحاق الجزائر بالدولة العثمانية،

حيث تدل كتاباته على اهتمامه العميق بالخصوصيات الثقافية والسياسية التي ميزت التحاق الجزائر بالدولة العثمانية أواخر القرن السادس عشر. حيث يشير إلى أن دخول الجزائر تحت السيادة العثمانية جاء في سياق سلسلة من الأحداث السياسية والعسكرية، التي أدت إلى تحول مهم في بنية السلطة بالمنطقة. ففي عام 1518م، استقلت الجزائر عن الحكم الإسباني بعد تأسيس الدولة العثمانية قاعدة لها في المنطقة، مما أتاح لها الفرصة لتوسيع نفوذها والاستفادة من الدعم العسكري والسياسي الذي تقدمه الدولة العثمانية¹¹.

في كتابه "تاريخ الجزائر تحت الهيمنة التركية 1515-1830م"، يبرز دي غرمون التأثير الكبير للعثمانيين على الهياكل الإدارية والعسكرية للجزائر، حيث اعتبر أن النظام العثماني أعاد تنظيم الجيش وحمايته من النفوذ الأجنبي، ويشير إلى أن الجزائر كانت تمثل واحدة من ولايات الإمبراطورية العثمانية، مما ساهم في تعزيز الاستقرار الداخلي وتوجيه الجهود نحو الدفاع عن

الهوية الثقافية والدينية، وقد اعتبر دي غرمون أن التحاق الجزائر بالدولة العثمانية أسفر عن تعزيز ودعم الهوية العربية الإسلامية في المنطقة، خاصة في ظل التهديدات الأوروبية المتزايدة¹².

وتحدث عن قوة البحرية الجزائرية وجرأة رياسها الجزائريين وتطورها المتواصل إلى درجة حجز السفن الإسبانية المسلحة تسليحا ثقيلا والمحملة بالذهب والفضة والبضائع الفاخرة، وهي راجعة من أمريكا اللاتينية المبحرة في المحيط الأطلسي وماكان احد يستطيع أن ينجو من ملاحقتهم¹³.

علاوة على ذلك، يتناول دي غرمون بالرواية والبيان علاقة الجزائر بالإمبراطورية العثمانية وتعتبرها علاقة تبادلية، حيث أن الجزائر من جهة تكتسب الحماية والدعم العثماني، ومن جهة أخرى تقدم حصناً استراتيجياً للدولة العثمانية في مواجهة الأطماع الإسبانية، ويفيد المؤرخ بأن الجزائر لم تقتصر على كونها نقطة انطلاق للهجمات البحرية على شواطئ أوروبا، بل أيضاً كان لها دور بارز ونشط إلى جانب الأسطول العثماني في حروبه كما في معركة ليبانت 1571م وفي الحرب الروسية العثمانية سنة 1787م¹⁴.

من جهة أخرى، انتقد دي غرمون أيضاً بعض الجوانب السلبية التي نتجت عن هذه العلاقة. فبالرغم من الاستقرار الذي وفرته السيادة العثمانية، إلا أن الإدارة العثمانية لجأت أحياناً إلى أساليب قمعية للتخلص من المعارضة والاحتفاظ بالسلطة. كما أدت الهيمنة العثمانية إلى تراجع بعض القيم التقليدية المحلية، مما تسبب في ظهور صراعات اجتماعية داخلية تحدث استقرار البلاد.

وعلى الرغم من هذا الانتقاد، أكد دي غرمون على أهمية الدور الذي لعبته الجزائر وتمسكها بسيادتها: "لقد كان الديوان يتخذ القرارات بكل سيادة، فيعلن الحرب، ويعقد السلم، ويمضي المعاهدات ويقيم أحلافاً، بدون أن يتساءل عما إذا كانت هذه القرارات المتخذة مقبولة أو غير مقبولة لدى الباب العالي"¹⁵.

5. تحامل المؤرخ الفرنسي دي غرمون على السلطة العثمانية في الجزائر:

تعتبر الجزائر جزءًا مهمًا من تاريخ الدولة العثمانية، التي امتدت عبر ثلاث قارات على مدار قرون عدة، ومع ذلك فإن تاريخ الجزائر في هذه الفترة لم يكن محصنًا ضد التأويلات والتحليلات التاريخية المنحازة.

فالمؤرخ الفرنسي دي غرمون، يظهر من خلال كتاباته بشكل واضح تحامله على السلطة العثمانية، وأفصح عن ذلك في مقدمة كتابه "بأن الجزائر العثمانية كانت مصدر الرعب والملجأ المفضل للقراصنة البربريسك"¹⁶ مما يستدعي منا تسليط الضوء على هذا الموضوع لفهم سياقها التاريخي وتأثيرها على تصوراتنا عن تلك الحقبة.

كما أن دي غرمون كان لديه أفكار ومعتقدات سياسية واجتماعية تتعارض مع النظام العثماني في بداية اهتمامه بالجزائر، لهذا سعى إلى تقديم صورة نقدية للسيطرة العثمانية بصورة عامة. فهذا المؤرخ، ومثله مثل العديد من المؤرخين الغربيين في تلك الفترة، يتبنى رؤية استشراقية تركز على عرض المجتمعات غير الغربية كعاجزة وغير متحضرة. إن تحامله على السلطة العثمانية في الجزائر يمكن أن يُفهم من خلال عدة جوانب.

أولاً: يظهر تحامل دي غرمون في تصويره للعلاقة بين الحكام العثمانيين والشعب الجزائري فقد كان يدعي بأن العثمانيين مارسوا نظامًا استبداديًا قائمًا على القمع والاستغلال، ولم يُظهر دي غرمون أي اعتراف بالمساهمات الثقافية والمدنية التي قدمتها الدولة العثمانية للجزائر، بل غالبًا ما ركز على العيوب والنواقص، وبالتالي فقد ساهمت كتاباته في تعزيز الصورة النمطية السلبية عن الحكم العثماني، مما عزز من قناعات الغرب بشأن تفوقهم الحضاري.

ثانيًا: يعتمد دي غرمون في تحليلاته على أسلوب الانتقائية في اختيار الأحداث والشخصيات، مما يتضح بشكل جلي في تغطيته لبعض الزعماء المحليين والتوجهات السياسية. فقد اختار أن يبرز الجوانب السلبية لبعض الولاة العثمانيين وتجاهل أو قلل من شأن الإنجازات التي حققها الآخرون. فعلى سبيل المثال، لم يتناول بشكل كافٍ الإصلاحات المالية والإدارية التي قام بها بعض الولاة العثمانيين والتي ساهمت في تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الجزائر.

ثالثاً: يُظهر تحامل دي غرمون على السلطة العثمانية في الجزائر من خلال استغلاله لأحداث معينة مثل الفتن والثورات الشعبية. فقد كان يركز على الجانب السلبي من هذه الأحداث، معززا بذلك فكرة أن النظام العثماني لا يستحق الولاء أو الدعم من الشعب، وهذا يتعارض مع العديد من الروايات التاريخية الأخرى التي تبين أن هذه الثورات كانت نتيجة لعوامل متعددة، بما في ذلك التدخلات الأجنبية والأزمات الاقتصادية، وليس فقط نتيجة لفشل السلطة العثمانية¹⁷.

رابعاً: تعكس لغة دي غرمون في كتاباته انحيازاً واضحاً، فقد استخدم مصطلحات تحمل طابعاً سلبياً وعالي الدلالة تصف الهيمنة العثمانية كاحتلالٍ قاسٍ. كما اعتمد على أسلوب السخرية والتهكم عند الإشارة إلى جوانب من الثقافة العثمانية، مما يعكس تحاملاً أكثر عمقاً ويعبر عن عدم احترام للمؤسسة الحاكمة، ويظهر ذلك في تحليلاته التي تدل على عدم فهم متعمق للثقافة والعراقة التاريخية للجزائريين تحت الحكم العثماني، بل يعكس استعلاءً ثقافياً ونظرةً فوقية.

خامساً: يرفض المؤرخ الفرنسي دي غرمون وبشكل قاطع الاعتماد على المصادر المحلية في كتابة تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، وشكك في نزاهتها ومصداقيتها واتهمها بالتجريد والمبالغة، ونادى بالاعتماد على الرحلات الأوروبية وأرشيف الدول الأوروبية والمذكرات ومراسلات القناصل وانطباعات الرهبان والجواسيس. وعليه فإن جل الدراسات التي كتبها دي غرمون، تعتبر مغرضة وتهدف إلى خدمة الاستعمار الفرنسي في مجال التاريخ¹⁸.

أخيراً، إن تحامل المؤرخ دي غرمون على السلطة العثمانية في الجزائر يرتبط بسياق تاريخي عام يعكس التوتر بين القيم الأوروبية الحديثة وأنظمة الحكم التقليدية غير الغربية مع بداية القرن التاسع عشر، بدأت انتقادات عالمية للتجارب الاستعمارية في العديد من مناطق العالم، لكن كان هناك تركيز خاص من قبل المؤرخين مثل دي غرمون على تصوير الأنظمة التقليدية، مثل النظام العثماني، كمثيالاتٍ للأنظمة الاستبدادية التي يجب إزالتها.

في الختام، يُظهر المؤرخ الفرنسي دي غرمون من خلال كتاباته تحاملاً واضحاً على السلطة العثمانية في الجزائر، بدلالة استخدامه لأسلوب الانتقاء، والتشويه، واللغة السلبية.

تمكنت هذه الكتابات من تشكيل وجهات النظر الغربية حول هذه الحقبة¹⁹، حيث أسهمت في تعزيز النظرة الاستشراقية التي تسعى لتقديم صورة ضبابية ومشوهة عن التاريخ العثماني في الجزائر. إن فهم هذا التحامل يُسهم في إعادة تقييم المصادر التاريخية ودراسة السياقات الثقافية والسياسية بشكل أكثر موضوعية، بعيدا عن الأيديولوجيات النمطية²⁰.

6. الكتابات التاريخية في الجزائر عن الوجود العثماني بين الاستمرارية والقطيعة:

لم تسلم الكتابات التاريخية الجزائرية بعد الاستقلال، وخاصة في الستينات والسبعينات من ذلك التشويه، فقد خضعت في مجملها كما يقول الدكتور ناصر الدين سعيدوني إلى: "توجهات إيديولوجية اشتراكية وإلى ميولاتٍ سياسية يسارية، وتحول التاريخ في هذه الفترة إلى وسيلة إقناع سياسي، ونضالٍ إيديولوجي، وتوجيه ثقافي، وهو الواقع المتميز باستمرار الكتابة التاريخية باللغة الأجنبية (الفرنسية)، وباستبداد لنظرة الإيديولوجية اليسارية، وتحكّم الجهاز الإداري في توجيه الثقافة مادياً ومعنوياً، مما جعل الإنتاج التاريخي في هذه الفترة محدود التأثير وقليل الكمية..."²¹.

وانطلاقاً من هذه النظرة راح بعض الكتاب يُقومون الفترة العثمانية بما استخلصوه من دراسات الأوربيين وآرائهم حول هذه الفترة، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث والرجوع إلى المصادر الأساسية والوثائق الأصلية ففي هذا السياق يذكر الكاتب عبد الرحمن بن أشنهو أن "...الإدارة التركية عبارة عن أداة تعمل ملء أكياس الخزينة وجيوب الأقلية التركية الحاكمة المسيطرة، مما جعل ثروة البلاد مما جعل ثروة البلاد في مثل هذا الوضع أشبه شيء بقطعة حلوى كل موظف يأخذ منها حسبما يخول له منصبه..."، أما مولود قايد فاستنتج في دراسته بأن: "...الأتراك أجانب وقد ضلوا أجانب طيلة القرون الثلاثة، وذلك لعدم تمكنهم من الاتصال بالسكان المحليين..."²².

وهو ما لم يصل إلى حدّ إرساء مدرسةٍ تاريخيةٍ جزائرية، محايدة في أحكامها، منهجية في أسلوبها، موضوعية في تقييمها لأحداث الماضي، وهو "ما أحدث شروخاً في الشخصية الوطنية وأدّى إلى اضطراب في الذاكرة الجماعية..."، ثم يقول الدكتور سعيدوني بوضوح: "إنّ

هذا الواقع المتأزم الذي تعرفه الدراسات التاريخية في الجزائر يعود في رأينا أساساً إلى تحكّم الميولات السياسية وشيوع الأطروحات التغريبية، وقد أدت هذه النظرة إلى إفراغ تاريخ الجزائر من كل محتواه فتحوّلت أغلب الحقب التاريخية التي عاشتها الجزائر إلى فترات استعمار وهيمنة أجنبية ²³، وبلغ التشويه إلى حد الانتقائية في التعامل مع هذا الوجود العثماني، ومحاولات فهمه في غير سياقه، والاستماتة في إفراغه من محتواه الثقافي والحضاري للانحراف به، ومنها وضع هذا الوجود والعلاقة به في سياق: النزعة القومية والصراع الطبقي والبعد المتوسطي والعامل العرقي والخلفية المذهبية والعقلية الطائفية والمصالح الخاصة والأطماع التوسّعية، ومن ذلك مثلاً تسمية هذا الوجود العثماني بالحكم التركي، مع أنه هناك فروقٌ جوهريةٌ دقيقةٌ بين العثمانيين والأتراك.

قد يكون من الأسباب الكبيرة لتشويه هذا الوجود هو مصادرة هذا التاريخ من طرف الاحتلال الفرنسي والجريمة التاريخية في حقّ الأرشيف الجزائري، مما أدّى إلى شحّ المصادر الأساسية والوثائق الأصلية التي ترسم الصورة الحقيقية عنه، يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله وهو يتحدّث عن العهد العثماني بالجزائر: "...انه عهد مايزال غير مدروس في جميع مظاهره وأن مآلفه علماء الجزائر إثناءه قليل لا يغطي معظم جوانبه، وحتى علماء الجزائر في العهد الفرنسي لم يلفتوا إلى هذا العهد، أما الجزائريين الذين تأثروا بالثقافة الفرنسية فكان شعارهم هو شعار الكتاب الفرنسيين أنفسهم، الذين اكتفوا برمي العثمانيين بالوحشية الثقافية والاستبداد السياسي والشره الاقتصادي..."²⁴.

أما الدكتور ناصر الدين سعيدوني فقد اختصر المواقف الرئيسية من الوجود العثماني بالجزائر في تصديره لكتاب: الدخول العثماني إلى الجزائر (15012م - 1543م)، للدكتور محمد دراج، قائلاً: "لقد ذهب بعض من كتب حول تاريخ الجزائر في العهد العثماني إلى اعتبار أنّ التحاق الجزائر بالدولة العثمانية كان الإطار الأمثل لتشكّل كيان الدولة الجزائرية الحديثة في إطار الرابطة العثمانية كباقي البلدان العربية آنذاك، كما أنّ البعض علّاه في مواقفه المعادية للأتراك فتجاوز الرابطة الدينية والظروف الخاصة للجزائر فاعتبر الوجود العثماني في الجزائر ذا

طبيعة استعمارية، وهناك من حاول اتخاذ موقفٍ معتدلٍ فاعتبر الوجود العثماني في الجزائر ضرورة تاريخية واستجابةً موققة، سمحت بإحباط المشروع الإسباني التوسعي في غرب المتوسط، وحال دون تكرار مأساة الأندلس ببلدان المغرب العربي، ولعلّ هذا هو الموقف الأقرب إلى الحقيقة..²⁵.

أما الكتاب الجزائريون الذين تأثروا بالكتابات التاريخية الفرنسية فيسمّون الوجود العثماني في الجزائر بالاحتلال التركي وبالعهد التركي وبالحكم التركي، ولا يسمّونه لا بالعهد العثماني ولا بالخلافة العثمانية، ناهيك أن يسمّونه بالخلافة الإسلامية، وقد نبّه الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم في كتابه: "شخصية الجزائر الدولية وهبتها العالمية قبل 1830م"، إلى تلك المغالطة بتسمية العثمانيين بالأتراك، وهو يشيد بشخصية الجزائر الدولية وبدورها العالمي وبوجودها المتميز: "ويكزون خاصة، بل وبصفة اخص، على عهد من أزهى عهودنا، وامجد عصورنا، ألا وهو العهد العثماني، الذي يشوهونه، ويصفونه بأنه عهد - سيطرة تركية، وحكم أجنبي، ووجدوا مع الأسف الشديد حتى لدينا أيضا، في الجزائر، من القوم التبّع من يثرثر بذلك ويخريشه..!"²⁶.

ويؤكد الدكتور أبو القاسم سعد الله ماذهب إليه الأستاذ نايت بلقاسم: "ومن الخطأ إطلاق اسم (الأترك) على الوجود وأهل السلطة خلال العهد العثماني في الجزائر. ذلك أن الوجود كان يتكون من عثمانيين. وهو بهذه الصفة كان يضم أجناسا مختلفة اللسان والعرق والجغرافية ولكنها جميعا تتفق في الولاء للإسلام والسلطان، فالصفة الموحدة للوجود هي العثمانية وليست التركية"، ثم يقول: "وقد ذكرت المصادر المعاصرة للعهد العثماني عدداً من المسؤولين كالباشاوات والآغوات والدايات - وهم الممثلون للسلطة في أعلى مستوى - كانوا من أصول غير تركية، ابتداءً من خير الدين نفسه، الذي تذكر هذه المصادر أنّه من أصل إغريقي."²⁷.

7. خاتمة:

ما زال تاريخ الجزائر في العهد العثماني يثير الكثير من الجدل لدى الباحثين جزائريين كانوا أم أجنبيا وهدفا للكثير من المغالطات والأحكام المغرضة، ورغم ذلك تبقى الكتابات الأجنبية عن الجزائر والجزائريين أثناء فترة التواجد العثماني من أهم المصادر التاريخية الضرورية لكتابة تاريخنا الوطني أثناء تلك الفترة الممتدة بين 1518-1830م.

8. قائمة المراجع:

1. صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، الجزائر 2012.
2. يحي بوعزيز : الموجز في تاريخ الجزائر (الجزائر الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ج 02.
3. مُحمّد دراج : الدخول العثماني الى الجزائر ودور الاخوة بربروس (1512-1543م)، شركة النشر والأصالة للتوزيع، الجزائر، 2012.
4. ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني 1792-1830م، دار البصائر، الجزائر، 2012.
5. شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، تر: مُحمّد مزالي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ج 02.
6. أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1998، ج 01.
7. جمال قنان: مدرسة التاريخ الاستعماري بين الإيديولوجية والموضوعية، المجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، العدد، 05، 1988.
8. حنفي هلاي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2008.

9. 'H.D.DE GRAMMONT:HISTOIRE D'ALGER SOUS LA DOMINATION TURQUE1515-1830,ERNEST LEROUX, éditeur, PARIS1887.

10. مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهبتها قبل سنة 1830م، دار هومة، الجزائر 2008، ج 01 .

11. ناصر الدين سعيدوني:ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، 2009.

9. هوامش:

¹ - صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، الجزائر 2012، ص49.

² - يحيى بوعزيز : الموجز في تاريخ الجزائر (الجزائر الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ج 02، ص16.

³ - مُحمَّد دراج : الدخول العثماني الى الجزائر ودور الاخوة بربروس(1512-1543م)، شركة النشر والأصالة للتوزيع، الجزائر، 2012، ص383.

⁴ - صالح عباد: المرجع السابق، ص 3.

⁵ - ناصر الدين سعيدوني:النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني 1792-1830م، دار البصائر، الجزائر، 2012، ص221.

⁶ - شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، تر: مُحمَّد مزالي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ج 02، ص364

⁷ - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1998، ج 01، ص11.

⁸ - جمال قنان: مدرسة التاريخ الاستعماري بين الإيديولوجية والموضوعية، المجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، العدد، 05، 1988، ص130.

⁹ - صالح عباد: المرجع السابق، ص 3

¹⁰ - حنفي هلالي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2008، ص104.

- ¹¹ -H.D.DE GRAMMONT:HISTOIRE D'ALGER SOUS LA DOMINATION TURQUE 1515-1830, ERNEST LEROUX, éditeur, PARIS 1887, P3
- ¹² Op, cit., p 40
- ¹³ - Ibid., p 47
- ¹⁴ - Ibid, . P 386
- ¹⁵ -Ibid, . P 126
- ¹⁶ -Ibd., p35
- ¹⁷ -op,cit., p409.
- ¹⁸ - حنفي هلالي: المرجع السابق، ص 102.
- ¹⁹ - مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيتها قبل سنة 1830م، دار هومة، الجزائر 2008، ج 01، ص 66.
- ²⁰ -op,cit, 123
- ²¹ - ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص ص 21-21.
- ²² - ناصر الدين سعيدوني: المرجع نفسه، ص 30
- ²³ - ناصر الدين سعيدوني: المرجع نفسه، ص 25
- ²⁴ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 1، ص 29.
- ²⁵ - محمد دراج: الرجوع السابق، ص ص 1-2.
- ²⁶ - مولود قاسم نايت بلقاسم: المرجع السابق، ص 12.
- ²⁷ - ابو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ج 01، ص ص 139-140.